مستخلص الرسالة

وتعد مؤلفات المحسن التنوخي من الأعمال المهمة في تاريخ الأدب العربي، وهي من المصنفات الجامعة التي تتضمن مختلف أجناس الكلام العربي وأنواعه وأنماطه، سواء

أكانت هذه المصنفات جامعة عامة مثل "نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة"، أو جامعة خاصة مثل "الفرج بعد الشدة" و "المستجاد من فعلات الأجواد"0

ويعد كتاب "الفرج بعد الشدة" كتابًا مميزًا في شكله وبنيته، تقوم فكرته الأساسية على رصد الشدائد والأزمات الحياتية التي آل أمرها إلى انفراج وحل، وصياغة هذه الفكرة في كتاب شامل وضخم يغلب عليه طابع السرد القصصي، جمع فيه القاصّ بين معظم أشكال القص السائدة في عصره من قص ديني وتاريخي واجتماعي وقص الغرائب والمغامرات، وبين الوحدة الموضوعية لهذه الأشكال القصصية المختلفة، مع الالتزام بمنهج التصنيف والتبويب، وصياغة ذلك كله في قالب سردي يحمل كثيرًا من سمات القص الفني؛ فقد كان "التنوخي" يعي تمامًا، وبصورة لا تقبل اللبس أنه كان يقدم نمطًا مبتكرًا من الأخبار والحكايات يعبّر عن تطور فن الخبر القصصي في مرحلة مهمة من مراحل تطور الأدب العربي، وذلك لما يتميز به الكتاب من تفرد في البنية ووضوح في المنهج، فالكتاب يحوي عددًا ثريًا وضخمًا من الأخبار القصصية التي تعد إضافة ونموذجًا واضحًا لهذا الفن المتأصل في تراثنا الأدبي، فضلًا عن تأكيده أنه في ذلك إنما كان يخرج عن السنن المعروفة في الأخبار، ولا نظن أن تلك السنن التي خرج عليها التنوخي إلا البنية التقليدية للخبر التي شاعت قبله، وترسّخت في شتى حقول الأدب المعروفة منذ قرون 0 ومن ثَم كان كتاب "الفرج بعد الشدة" يعبّر عن تطور فن الخبر القصصي في مرحلة مهمة من مراحل تطور الأدب العربي0

ومن ثَم فقد وجدت الباحثة ضالتها في هذا الكتاب في محاولة للكشف عن جانب مجهول من جوانب تراثنا النثري، في مرحلة مهمة من مراحل تطوره، وذلك من خلال العرض والتحليل والاستقصاء مع الإفادة من المناهج والدراسات النقدية المعاصرة، ولاسيما نظرية السرد القصصي وتقنياتها الحديثة0

تشكّلت هذه الدراسة من مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة : تحدثت في التمهيد عن النشأة والتكوين الثقافي لصاحب "الفرج بعد الشدة" ومدى استفادته من أجواء القص الشائعة في عصره، ومصادر القص الشفاهية والكتابية التي استقى منها موارده, ثم تحدثت عن المنهج الذي اتبعه المصنف في الجمع والترتيب، والمنطق الذي احتكم إليه في تسلسل

القصص والأخبار وتتابعها داخل أبواب الكتاب المختلفة, ومنهجه كذلك في الرواية والإسناد، وتدقيق القول في مراتب التحمل، محافظًا على ذلك التقليد الذي بدأ دينيا، وارتبط برواية الحديث الشريف ، و تحدثت كذلك عن تعدد الروايات الذي يعد علامة مميزة لمنهج الرواية في الكتاب.

أمّا الفصل الأول : فقد جاء بعنوان " تشكيل الخطاب", تحدثت فيه عن عناصر تشكيل الخطاب السردي ممثلة في الراوي والمروي والمروي له, ثم فصّلت الحديث عن الراوي باعتباره أهم عناصر التشكيل، فهو قائد سيمفونية العمل السردي، ولا يتجسد الحكي إلا من خلال ملفوظه, فتحدثت عن وجوده ودوره في جملة السند التي تتشكل من سلسلة من الرواة , لكل واحد منهم مرتبته الزمنية الخاصة به في إطار الزمن الماضي الذي انتقلت خلاله حادثة الخبر عبر رحلتها – على افتراض أنها وقعت بالفعل– وصولًا إلى حاضر التشكيل الكتابي , ثم عرّجت على الحديث عن أشكال الراوي وأنماط الرؤى من خلال الحديث عن وجود الراوي في متن الخبر .

وجاء الفصل الثاني تحت عنوان " البناء الفني للحكاية " وقد تحدثت فيه عن ألوان القص داخل الكتاب, وعن البنية الفنية لهذه القصص من خلال رصد لونين من البنى الفنية هما: **البنية البسيطة** التي ترتكز على حدث محدد ينمو ويتطور صعودًا إلى ذروة التأزم والتعقيد , ثم هبوطًا نحو الانفراج والحل , وهذا النمط من البنية هو الأكثر انتشارًا داخل الكتاب . **والبنية المركبة** ، تلك التي تتألف فيها القصة من حكايات عدة تتداخل مع بعضها البعض لتصنع في النهاية بناءً كليًا متماسكًا 0 وجاء ختام الفصل بالحديث عن خصوصية الحل فنيته عند صاحب "الفرج بعد الشدة".

أمّا الفصل الثالث: فقد جاء تحت عنوان "الشخصيات .. بنية ونماذج "، ولما تتميز به شخصيات "الفرج بعد الشدة" من مرجعيّة تاريخيّة وخصوصيّة فنيّة، فقد قمت بتقسيم هذا الفصل إلى قسمين, خصصت القسم الأول للحديث عن البناء الفني للشخصية, وذلك من خلال الحديث عن البعد المرجعي الذي يعطي للشخصية وجودها في سياق الواقع والتاريخ, والبعد الفني الذي ينفث في الشخصية روحًا جديدة تسمو بها إلى عالم الفن, وذلك من خلال طريقتي : الوصف المباشر, والوصف غير المباشر0 أما القسم

الثاني من هذا الفصل فقد خصصته للحديث عن نماذج الشخصيات التي تعرض لها التنوخي في سرده .

والفصل الرابع جاء للحديث عن "الزمان والمكان", تحدثت فيه عن الزمان السردي من خلال تقنيتي: الترتيب والإيقاع , وجاء الحديث عن الترتيب ممثلًا في: الزمن الطولي, والاسترجاع بنوعيه (خارجي , وداخلي), والاستباق بنوعيه (خارجي , وداخلي) . أما تقنية الإيقاع فجاءت ممثلة في : الوقفة , والمشهد , والتلخيص , والحذف .

وجاء الحديث عن المكان السردي موزعًا بين أبعاد المكان وأنماطه، أبعاد المكان ممثلة في البعد النفسي, والبعد العجائبي, والبعد الجغرافي . وأنماط المكان ممثلة في الأماكن المغلقة، والأماكن المفتوحة .

أمّا الفصل الخامس: فقد جاء تحت عنوان : " لغة القص وجمالياته " تحدثت فيه عن مستويات الخطاب السردي من خلال الحديث عن الخصائص اللغوية لصيغ السرد , والوصف , والحوار . ثم تحدثت عن مستويات اللغة التي تميز بها "كتاب الفرج بعد الشدة "0

ومن أهم ما خرج به البحث من نتائج، وما وقف عليه من فوائد انتهت إليها الباحثة – بعد هذا التناول لكتاب "الفرج بعد الشدة" وفق مقوّمات السرد الحديثة– أن الناحية الفنية غالبة على قصص "الفرج بعد الشدة"؛ فقص الكتاب يجمع بين العلم والفن في آن واحد، أي بين الإرجاع والتأثير الناتج عن خصوصية الاختيار والصياغة، فقد تكون قصص "الفرج بعد الشدة" كلها حقائق، ولكن عالم الفرج يظل عالمًا فنياً، وليس معنى ذلك أنه عالم كاذب، بل إن صدقة الفني أعظم من الحقيقة نفسها؛ فغاية الكتاب تقوم على تصوير حدث تام يتطور إلى تأزم وتعقيد ثم يهبط نحو انفراج وحل0

وقد اتضحت براعة" المحسن التنوخي" في عرض قصصه وأخباره بشكل مشوّق وجذاب يستحوذ على اهتمام القارئ من خلال تعدد أنماط الرواة، وتباين درجات التبئير،

وتنوع أشكال الرؤى التي تقدَّم من خلالها عملية "الحكي" لمواقف منتقاة من الواقع، يقدمها الراوي– بأنماطه المتعددة– بصورة فنية تهدف لإيصال رسالة المؤلف الأخلاقية والتربوية بطريقة ممتعة ومؤثرة0

تقوم جلّ أخبار وقصص الكتاب على ثنائية الطلب والتحقق؛ فهي تبدأ عادة بتصوير الشدة التي يعاني منها شخص ما، وتنتهي بحصوله على مرغوبه، فهو يتعرض لامتحان ويؤول أمره إلى النجاح في تجاوز العقبة، وبذلك فإن هذه النصوص تنطلق جميعها من وضع أولي يتجسم في الانفصال بين الذات والموضوع، أي بين الشخصية والمال أو العقار أو الصحة أو المجد000 وتنتهي باتصال بينهما من جديد ، وهو ما يمكن أن يطلق عليه فنيًّا بكلمتي(الأزمة والحل) ؛ لذا فقد صاغ التنوخي هذه القصص في قالب فني قائم على تصوير الأزمة وبيان سبل الخلاص منها0

ارتكزت الصياغة الفنية لقصص"الفرج بعد الشدة" على لونين من البنى الفنية، هما : البنية البسيطة والبنية المركبة0وتميزت أنماط الحلول أو لحظات الانفراج عند صاحب "الفرج بعد الشدة" بخصوصية شديدة، تكشف عن حس فني ملهم؛ "فالتنوخي" لم يحتكم في انتقائه لقصصه وأخباره إلى فقهه الذي يبحث فيه عن الحلال والحرام، وما يجوز ومالا يجوز، أو عمله كقاضي يهدف إلى تحقيق العدالة بإصدار الأحكام على المذنبين، وإنما كان فنانًا وحسب، فنانًا يحتكم إلى حسّه الفني الرحب في التقاط الحادثة النادرة والمشوقة، وصياغتها في قالب فني يصل بها إلى ذورة التعقيد والتأزم، ثم اصطياد الحل المفاجئ وغير المتوقع، ومن ثَم فقد اتسع مفهومه للفرج (الحل) ليشمل انقشاع الأزمة بصرف النظر عن طبيعة هذه الأزمة أو سبيل تفريجها، دافعه في ذلك نظرته للإنسان من حيث هو إنسان؛ فـ"التنوخي" هنا يهدف إلى تحقيق العدالة الفنية قبل كل شيء0

وجاءت نماذج شخصيات "الفرج بعد الشدة" أمزجة شتى، قدم السارد خلالها شخصيات عربية وغير عربية، تمثل المجتمع العربي بكل فئاته وطوائفه ، وتضم نوعي الجنس البشري الرجل والمرأة، وتميز بناء الشخصيات داخل الكتاب بخصوصية شديدة تجمع بين مرجعية التاريخ وجماليات الفن، التاريخ بما يتطلبه من صدق وموضوعية، والفن بما يتميز به من إبداع وخصوصية، فقد عمد صاحب" الفرج بعد الشدة" في تصويره

لشخصيات إلى الوقوف في منطقة وسطى بين الواقع والخيال، فخرجت الشخصية من سياقها المرجعي التاريخي، لتدخل في سياق فني سردي، جعل لها وجودًا جديدًا يحافظ على هويتها التاريخية، مع إعطائها أبعاداً وملامح جديدة تكشف عن رؤية المبدع، وتحافظ في ذات الوقت على الملامح العامة للشخصية التاريخية، وهو ما يعني الجمع في بنية الشخصية بين اتجاهين متقابلين في آن واحد، الأول: يمثل الشخصية بوصفها كائنًا حيًا له وجوده المرجعي في سياق التاريخ0 والثاني: يمثل الشخصية بوصفها كائنًا لغويًا يتشكل من خلال بنى لغوية خاصة تخضع لسيطرة الذات المبدعة 0

نجح صاحب"الفرج بعد الشدة" في توظيف تقنية اللاترتيب للزمن في القصة، التي تكشف عن أهمية دور الراوي في إدارته لأحداث قَصّه، وتوجيهه بما يخدم غايات السارد ومقاصده، فالترتيب المنطقي للأحداث يضفي عليها روحاً من الرتابة بسبب واقعيتها الشديدة، ومن ثَم فقد تجاوز الراوي الترتيب المنطقي للأحداث عبر تقنيتي: الاسترجاع بأنواعه (الخارجي والداخلي، الكلي والجزئي)، والاستباق بأنواعه (الخارجي والداخلي، الكلي والجزئي)، كما استطاع بعبقريته وحسه الفني أن يوظف التقنيات السردية ذات البعد الزمني في تحقيق إيقاع سردي يتراوح بين السرعة المفرطة التي تحدث أثناء الحذف أو التلخيص، والبطء المتناهي أو التوقف التام ممثلا في الوقفات الوصفية، ويتوسط ذلك الحركة المتوازية ممثلة في المشهد الحواري0

تعددت الأماكن وتنوعت أنماطها بتعدد القصص داخل الكتاب وتنوعها، فتفرقت أنماط المكان ما بين أماكن مغلقة وأماكن مفتوحة، وحملت صورة هذه الأماكن أبعادًا عدة ، منها: البعد الفني، والبعد العجائبي، والبعد الجغرافي0

يأتي تعامل "التنوخي" مع المكان بحرفية ووعي شديدين؛ فالسارد يعي جيدًا أهمية المكان في بنية السرد، ولكن هذا الوعي لم يوقعه في وصف مسهب لجماليات المكان وتفاصيله بطريقة تعوق حركة السرد، وجاء وصفه للمكان في أغلب القصص مجملًا بلا تفصيل إلا في المواضع التي تلعب فيها تفاصيل المكان دورًا هامًا ومميزًا في بنية السرد0 ويأتي المكان في كثير من المواضع منزويًا داخل بنية السرد، حيث يكتفي الراوي فيه بذكر المكان أو الإشارة إليه دون وصف يحدده ويرسم تفاصيله، خاصة في المواضع التي لا يخدم فيها وصف المكان سياق الأحداث، ولا يساعد على فهم أسباب الحدث أو تطوره،

فيكون المكان في هذه المواضع غير حاضر بقوة وبشكل مباشر داخل السرد، وإنما يترك للقارئ متعة تخيله، وتصوّر ماهيته، في ضوء أحداث القصة0

تنوعت صيغ الخطاب وتعددت مستوياته داخل الكتاب إلى ثلاثة صيغ أومشكّلات هي: السرد، والوصف، والحوار (المشهد)، وقد وظف السارد كل صيغة من هذه الصيغ بما يخدم بنية السرد، ويحقق أهداف السارد 0

زاوج "التنوخي" داخل كتابه بين مستويين لغويين أحدهما يعمد فيه إلى التكلف والصنعة الفنية ومحاكاة لغة الشعر، وقد خصّه للمواضع التي يتحدث فيها المؤلف بصفته الشخصية، والمستوى الثاني: هو مستوى يعمد إلى البساطة والتلقائية، وقد خصّه للمواضع التي يضع فيها الحديث على لسان سارد أو شخصيّة ليمثلا الواقع وينقلاه بلغته أو لغة قريبة منه 0 ومن منطلق محاكاة لغة الواقع جاء هذا الأسلوب مطعمًا ببعض التراكيب العامية ومصطلحات العصر، وكذلك بعض الكلمات المعربة والدخيلة0

ولا تدّعي هذه الدراسة أنها ألمّت بكل شيء جاء في الكتاب, فثراء الكتاب وغناؤه يحول دون الإلمام بكل جوانبه، فمازالت هناك جوانب كثيرة داخل الكتاب جديرة بالدراسة والبحث0

والله تعالى أسأل التوفيق والسداد، ونافع العلم , وطيب العمل، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وخدمة لأمتنا الخالدة الأصيلة ولتراثها العظيم0

والحمد لله رب العالمين.

الباحثة